عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الرابع - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

٤

القرن الخامس عشر الهجري

الأبحاث والدراسات

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

كسوة الكعبة

بقلم
فريال داود عبد الخالق
كلية الآداب / جامعة بغداد
قسم الآثار

لمحة تاريخية

«أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة ..»(١) ويعني بها الكعبة(٢) . فقد اعتادت قريش في الجاهلية منذ زعيمها قصي بن كلاب(٣) ان تفرض على القبائل في الجزيرة مبالغ كل على قدر استطاعته لشراء ما تكس به الكعبة سواء كان من الخصف(٤) او النسيج وهو ما يعرف بأسم الكسوة(٥) .

ولقد اختلف المؤرخون في أول من كسا الكعبة في الجاهلية الا انهم اجمعوا بان الكعبة كانت تكس بالعديد من الكسوات منها ثياب حمر مخططة يمانية تعرف بالوصايل(٦) ،ومنها ثياب تنسب الى قبيلة من همدان تعرف بالثياب المعافريه(٧) وهناك ثياب رقيقة الملمس تسمى بالملاء(٨) او برود يمانية تجمع خيوطها بعد عزلها وتشد ثم تصبغ وتنسج تسمى بالعصب(٩) . وهناك ثياب خيوط نسجها من الشعر الغليظ تعرف باسم المسوح(١٠) ويروى ان أول من كسا الكعبة هو « تبع الحميري » فقد ذكر الازرقي انه « أول من كسا الكعبة كسوة كاملة ..... فكساها الانطاع(١١) ثم ... الوصائل ... »(١٢) ، وهو الذي جعل للكعبة بابا ثم اسدل عليه سترا وانشد شعرا :

وكسونا البيت الذي حرم الله
ملاءً معضداً وبرودا(١٣)

(١) القرآن الكريم سورة (آل عمران) الآية (٩٦) .
(٢) الكعبة ، بيت الله الحرام وفي المأثورات الدينية ان أول ما خلق الله الأرض مكان الكعبة ثم دحا الأرض من تحتها فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وعندما امر الله نبيه ان يرفع قواعد البيت وساعده على ذلك ولده اسماعيل كان البيت في ذلك العهد بدون سقف ،ووصفها البشاري فقال : (هو في وسط المسجد الحرام مربع الشكل بابه مرتفع عن الأرض نحو قامة عليه مصراعان ملبسان بصفائح الفضة قد طليت بالذهب) (ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ـ جـ ٤ ـ ص ٤٦٤ ـ بيروت ١٩٥٧) .
(٣) الأزرقي ـ اخبار مكة ـ جـ ١ ـ ص ٢٥١ ـ بيروت ١٩٦٩ و القلقشندي ـ صبح الاعشى ـ جـ ٤ ـ ص ٢٧٧ ـ القاهرة ١٩١٤م .
(٤) الخصف : هي حصر من خوص النخل (ياقوت ـ البلدان ـ جـ ٤ ـ ص ٤٦٥) .
(٥) الكسوة ، الكسوة : اللباس (ابن منظور ـ لسان العرب ـ مجلد (١٥) ـ ص ٢٢٣ ـ بيروت ١٩٥٦) .
(٦) الحافظ ـ شفاء الغرام ـ جـ ١ ـ ص ٤٧ ـ مكة ١٩٥٦
(٧) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٤٧ والحموي ـ معجم البلدان ـ جـ ٤ ـ ص ٤٦٥ والحافظ ـ شفاء الغرام ـ ـ جـ ١ ـ ص ١١٩ .
(٨) الحافظ ـ المصدر السابق ـ ص ١١٩ .
(٩) وهي البرود اليمانية جمع بردة ، وهي كساء مربع اسود فيه صفر تلبسه الاعراب (ابن منظور ـ لسان العرب ـ مجلد (٣) ص ٨٧)
(١٠) الحافظ ـ شفاء الغرام ـ جـ ١ ـ ص ١١٩ .
(١١) الانطاع : جمع نطع وهو بساط من الاديم اي الجلد (الأزرقي ـ اخبار مكة ـ جـ ١ ـ ص ٢٥٠) .
(١٢) الازرقي ـ اخبار مكة ـ ص ٢٥٠ والعمري ـ مسالك الابصار في ممالك الامصار ـ جـ ١ ـ ص ١٠١ ـ القاهرة ١٩٢٤ ـ والقلقشندي ـ صبح الأعشى ـ جـ٤ ـص٢٧٧
(١٣) العمري : المصدر السابق ـ ص ١٠٢ والحموي ـ معجم البلدان ـ جـ ٤ ـ ص ٤٦٦ وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب ـ جـ ٢ ـ ص ٨٨ البيت الاتي :
فكسونا البيت الذي حرم الله ملاء مقصباً وبرودا

كما كسيت الكعبة الشريفة في الجاهلية بمطارف[١٤] الخز[١٥] الاخضر والاصفر شقاق شعر ونمارق عراقية[١٦] .

ويقال ان ابي ربيعة بن عبدالله المخزومي كان يكسوها في كل سنة كسوة مخططة يمانية الاصل تعرف باسم الحبرة[١٧] .

وورد في كتب التاريخ اسماء نسبت اليها عادة اكساء الكعبة قبل ان يكسوها تبع منهم النبي اسماعيل وعدنان بن خالد بن جعفر بن كلاب ويقال انه « اول من كسا الكعبة بالديباج ..... وجد لطيمة[١٨] يحمل البز ووجد فيها انماطا فعلقها على الكعبة »[١٩] .

ولم تقتصر عادة اكساء الكعبة على الرجال فقط فقد لعبت المرأة العربية دورا لا ينكر في هذا المجال منذ الجاهلية وصفحات التاريخ تحفظ لنا اسماء العديد من النساء وما خلدنه من أعمال مجيدة ومنهن نتيلة بنت جناب بن كليب المعروفة بـ « أم العباس بن عبدالمطلب ، كانت قد كست الكعبة بالديباج »[٢٠] .

الكسوة في العصر الاسلامي

اشرق نور الاسلام واتجه المسلمون الى الكعبة أشرف وانبل مكان يؤدون الصلاة يوميا فيه ويحجون مرة كل عام « من استطاع » ويطوفون بالبيت العتيق.

واستمر المسلمون على ما كان اجدادهم عليه ومن سبقهم قبل الاسلام في اكساء الكعبة وكتب التاريخ تزخر باسماء من قام باكساء الكعبة مبتدئة بالرسول الكريم اذ يروى انه (ص) كسا الكعبة[٢١] ثيابا يمانية[٢٢] وينفق عليها من بيت مال المسلمين[٢٣] وحرص من جاء بعد الرسول (ص) على ارسال الكسوة الى الكعبة ، فالخليفة ابو بكر (رض) كسا الكعبة[٢٤] بكساء لا نعرف نوعه ، ثم كساها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بكسوة سنوية تنسج من القباطي[٢٥] المصرية المصنوعة في مصر وينفق عليها من بيت مال المسلمين[٢٦] وكان يأمر بنزع الكسوة القديمة في كل سنة ويقسمها على الحجاج[٢٧] وسار الخليفة عثمان (رض) على نفس المنوال الا انه رأى ان تباع الكسوات القديمة وتنفق أثمانها في سبيل الله[٢٨] .

اما في العصر الاموي فقد كان الخليفة معاوية يكسو الكعبة مرتين في السنة الاولى من نسيج القباطي في نهاية شهر رمضان والثانية من الديباج في يوم العاشر من محرم[٢٩] ، ويروى القلقشندي ان شيبه بن عثمان سادن الكعبة أيام معاوية كان قد استأذن معاوية بتخفيف الكعبة مما عليها من كسوات قديمة بعضها يعود الى الجاهلية فأذن له معاوية وطلب منه ان يطيب جدرانها بالروائح العطرة « الخلوق » ففعل ثم قسم الكسوات القديمة على أهل مكة للتبرك[٣٠] بها ولكن الازرقي – وهو اول

---

(١٤) المطرف : وهو نوب مربع (ابن سيدة – المخصص – جـ ٤ – ص ٦٨) .

(١٥) الخز : نسيج فيه السدى من الحرير واللحمة من الصوف
Dozy : p. 113; Not (9)

(١٦) القلقشندي : صبح الاعشى – جـ ٤ – ص ٢٧٨ .

(١٧) المصدر السابق – ص ٢٧٧ والازرقي – اخبار مكة – جـ ١ – ص ٢٥١ .

(١٨) جمعها لطيم وهي الجمال التي تحمل العطر والبز (ابن منظور – لسان العرب المجلد الثاني عشر – ص ٥٤٤ – بيروت ١٩٥٦) .

(١٩) شفاء الغرام – جـ ١ – ص ١٢١ والسهيلي : الروض الانف – جـ ١ – ص ٧٧ والالوسي : بلوغ الأرب – جـ ١ – ص ٢٣٤ .

(٢٠) الثعالبي – لطائف المعارف – ص ١١ – ١٩٦٠ والحافظ – شفاء الغرام – جـ١ – ص ١٢١ .

(٢١) الأزرقي : أخبار مكة – جـ ١ – ص ٢٥٢ (عن ابن الهاجر ان النبي (ص) خطب الناس يوم عاشوراء فقال النبي (ص) :هذا يوم عاشوراء يوم تنقض فيه السنة، وتستر فيه الكعبة ...) الأزرقي – ص ٢٥٢ .

(٢٢) البلاذري – فتوح البلدان – ص ٤٧ والحافظ – شفاء الغرام – جـ ١ – ص ١١٩ والقلقشندي – صبح الاعشى – جـ ٤ – ص ٢٧٨ و ص ٢٨٣ .

(٢٣) الخليلي – موسوعة العتبات المقدسة – قسم مكة – جـ ١ – ص ٢٩٩ – بغداد ١٩٦٧ .

(٢٤) الأزرقي – أخبار مكة – جـ ١ – ص ٢٥٣ و العمري – مسالك الابصار –ص١٠١ وشفاءالغرام –جـ١ – ص١٢٠

(٢٥) انظر ص ١١ من البحث في تعريف القباطي .

(٢٦) البلاذري – فتوح البلدان – ص ٤٧ والعمري – مسالك الابصار – جـ ١ – ص ١٠١ والحافظ – شفاء الغرام – ص ٤٧ و ص ١١٩ والقلقشندي – صبح الاعشى – جـ٤ – ص ٢٧٩ .

(٢٧) القلقشندي – المصدر السابق – ص ٢٧٩ .

(٢٨) يذكر صاحب مرآة الحرمين (ان الخليفة عثمان (رض) وجد شيئا من الكسوة القديمة على حائض فامر بحفيرة والقيت بها الكسوة القديمة ثم واراها بالتراب . ابراهيم باشا – مرآة الحرمين – جـ ١ ص ٢٩٧ .

(٢٩) القلقشندي – المصدر السابق ص ٢٧٩ .

(٣٠) روي عن عائشة (رض) انها انكرت عمل شيبة وقالت (بعها واجعل ثمنها في سبيل الله) اما ام سلمة (رض) فيروى عنها انها قالت : اذا نزعت عن الكعبة ثيابها فلا يضرها من لبسها من الناس من حائض أو جنب (القلقشندي – صبح الاعشى – جـ ٤ – ص ٢٨٣) .

من كتب في تاريخ مكة ـ كان قد ذكر لنا بان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) كان ينـزع كسـوة البيت في كل سنة ثم يقسمها على الحجاج[٣١] مما يدل على ان كسوات العصر الجاهلي ليس لها وجود أيام الامويين .

وفي ايام يزيد بن معاوية كسيت الكعبة كسوة من الديباج الخسرواني[٣٢] ، الا انه حـدث في عهـده (٦٢هـ)[٣٣] حريق ادى الى تصدع الكعبة وحـرق كسوتها فكساها ابن الزبير بالديباج[٣٤] .

ومن بلاد الشام بالذات كان يبعث الخليفـة عبدالملك بن مروان الكسـوة السنويـة من الديباج وكان من عادته ان تعرض الكسوة في مسجد الرسول الكريم بالمدينة المنورة يوما[٣٥] واحدا ثم تحمل الى الكعبة وقد سار معظم خلفاء بني أمية من بعده على ذلك وكانوا يقدمون الحلل التي كان أهل نجـران يؤدونها لهم بعد ان تغطى بالديباج[٣٦] .

نوع نسيج الكسوة

لعب العباسيون دورا كبيرا في تطوير صناعة النسـيج وانتاج انـواع متعـددة من المنسوجات العراقية يتم نسجها في دور الطراز الخاصة ودور الطراز العامة في مدينة دار السلام وغيرها من مراكز النسيج العراقية ومما لا شك فيه ان عادة ارسال كسوة الكعبة كان لها الفضل الكبير في تطوير بعض المنسوجات العراقية وكانت دور الطراز في بغـداد تحرص على نسـج المنسوجات الخاصة بكسـوة الكعبة ، فالخليفة المهدي سنة ١٦٠هـ كان قد كسا الكعبة بكسوة حملها معه من بغداد في موسم الحج وقد ابدى له سدنة الكعبة خوفهم من انهيار جدران الكعبة لكثرة ما عليها من الكسوات فما كان منه الا ان أمر بان ترفع جميـع ما عليهـا من الكسـوات ويُقتصر على الكسوة الجديدة التي حملها معه[٣٧]، وقيل انه حمل معه ثلاث كسوات كانت من نسيج القباطي والخز والديباج[٣٨] .

اما المأمون سنة ٢٠٦هـ فقد كسا الكعبـة بثلاث كسوات الاولى من نسيج الديباج الاحمـر في يوم الترويه ثم القباطي في بدايـة شهر رجب والثالثة في يوم السابع والعشرين من شهر رمضان تكون من نسيج الديباج الابيض[٣٩] .

يتبين مما تقدم ان معظم كسوات الكعبـة المنسوجة من الديباج كانت ذات لون احمر وانهـا كانت سريعة التلف مما حدا بالمأمون ان يستبدلها بالديباج الابيض ، واستمر الحال كذلك في عهـد المتوكل (٢٤٠هـ)[٤٠] بل زاد على ذلك بان أمـر باكساء الكعبة كل شهرين كسوة جديدة[٤١] الا ان سدنة الكعبة طلبوا منـه الاقتصار على كسـوة واحدة ، وهذا ما حـدث فعلا في سنة ٢٤٣هـ عندما كسا المتوكل الكعبة بالقباطي كبطانة واسدل فوقها كسوة اخرى من الديباج[٤٢] .

يتضح مما تقدم الدور السياسي الذي لعبته كسوة الكعبة اضافـة الى دورها الفني فاهتمام الخلفاء العباسيين بارسال الكسـوة كل شهرين أو ثلاثة يدل دلالة واضحة على مدى قوة مركزهـم واهتمامهم بكسب رضا الناس عن طريق العنـاية بالكعبة ، ولكن كثيرا ما كان يحدث مجيء خلفـاء ضعفاء تفلت زمام الامور من ايديهم وعندها تبرز قوى خارج الخلافة العباسية ، ففي سنة ٢٠٠هـ تغلب الطالبيون على مكة بقيادة حسين بن حسن واول عمل

(٣١) الأزرقي ـ اخبار مكة ـ جـ ١ ـ ص ٢٥٣ .
(٣٢) المطهر المقدسي ـ البدء والتـاريخ ـ جـ ٤ ـ ص ٨٤ ليدن ١٩٠٧ والبـلاذري ـ فتـوح البلدان ـ ص ٤ و القلقشندي ـ جـ ٤ ـ ص ٢٧٩ .
(٣٣) جهز يزيد بن معاوية جيشا لمحاربة ابن الزبير في مكـة فتحصن الاخير في المسجد الحرام واستعاذ به واثناء القتال رمى احد رجال يزيد نارا شعلت على ليفـة في رأس رمح وكانت الريح عاصفة فطارت شرارة فتعلقت باستار الكعبة فاحرقتها (الحافظ ـ شفاء الغرام ـ ص ٤٦ .
(٣٤) ابن العمري ـ مسالك الابصار ـ جـ ١ ـ ص ٩ .
(٣٥) الأزرقي ـ اخبار مكة ـ جـ ١ ـ ص ٢٥٥ والقلقشندي ـ صبح الأعشى ـ جـ ٤ ـ ص ٢٧٩ وجاء في الصفحة (٢٧٦) من المرجع ذاته عن ابن النجار في تاريخ المدينة النبوية ... انه ادرك كسوة الكعبة يؤتى بها المدينـة قبل ان تصل الى مكة فتنشر على الرضراض في مؤخر المسجد ثم يخرج بها الى مكـة وذلك في سـنة احدى وثلاثين او اثنتين وثلاثين ومائة .
(٣٦) القلقشندي ـ صبح الاعشى ـ جـ ٤ ـ ص ٢٩ .
(٣٧) الأزرقي ـ اخبار مكة ـ ط ١ ـ ص ٢٦٢ والسيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص ٢٧١ . مصر ١٩٥٢ وابو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ جـ ٢ ـ ص ٣٦ والاخباري ـ المحبر ـ ص ٣٦ .
(٣٨) القلقشندي ـ صبح الاعشى ـ جـ ٤ ـ ص ٢٨٠ .
(٣٩) العمري ـ مسالك الابصار في ممالك الامصار ـ جـ ١ ـ ص ١٠٠ ـ القاهرة ١٩٢٤ والحافظ ـ شفاء الغرام ـ جـ ١ ـ ص ١٢٠ .
القلقشندي ـ صبح الأعشى ـ جـ ٤ ـ ص ٢٨٠ .
(٤٠) الحافظ ـ شفاء الغرام ـ جـ ١ ـ ص ١٢٠ .
(٤١) القلقشندي ـ صبح الاعشى ـ جـ ٤ ـ ص ٢٨١ .
(٤٢) القلقشندي ـ المصدر السابق ـ جـ ٤ ـ ص ٢٨١ .

قام به هو اكساؤه الكعبة بكسوتين من القز الرقيق الاولى صفراء والاخرى بيضاء كتب عليها «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى اهل بيته الطيبين الطاهرين الاخيار » « امر ابو السرايا الاصغر بن الاصغر داعية آل محمد صلوات الله عليه وسلامه » « هذه الكسوة لبيت الله الحرام »(٤٣) .

وفي حدود سنة ٣٥٨هـ تمركزت القوة الاسلامية في مدينة القاهرة على يد الفواطم وحدث التنافس بينهم وبين العباسيين في معظم المجالات السياسية والاجتماعية كان من أبرزها استيلائهم على الحجاز ثم ارسال كسوة الكعبة ففي سنة ٣٨١هـ كسيت الكعبة من مصر بكسوة بيضاء ثم استبدلوها بكسوة سوداء(٤٤) ، وفي عهد الحاكم منصور سنة ٣٩٧هـ كسيت الكعبة بالقباطي المصري(٤٥) ، ثم ارسلت الكسوة من مصر ايضا في سنة ٤٢٣هـ من قبل الظاهر لاعزاز دين الله والي مصر(٤٦) ، وفي عهد الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ) يرسم لنا الرحالة ناصر خسرو صورة واضحة لصناعة مصر في هذه الفترة وابرزها صناعة النسيج وانواعه ثم يشير الى كسوة الكعبة بقوله : « وكان السلطان يرسل الكسوة للكعبة كالمعتاد لانه يرسلها مرتين كل سنة »(٤٧) . وكثيرا ما كانت تهدى كسوات الكعبة من مراكز العباسية أو الفاطمية ففي سنة ٤٦٦هـ كسيت الكعبة بكسوة بيضاء من عمل الهند(٤٨) وفي هذه السنة ايضا حمل السلطان محمد بن سبكتكين كسوة من الديباج الاصفر(٤٩) .

ولم يرد في الروايات السابقة وصفا لكسوة الكعبة الا ان ابن جبير في رحلته يعطينا وصفا كاملا لها في ايامه في القرن السادس الهجري(٥٠) .

وفي سنة ٦٤٤هـ هبت عاصفة شديدة على مدينة مكة ادت الى تمزيق كسوتها وبقيت الكعبة بدون كسوة لمدة واحد وعشرين يوما فكساها شيخ الحرم (العفيف منصور بن منعة البغدادي) بكسوة من نسيج القطن المصبوغ باللون الاسود(٥١) .

واهتم مماليك مصر بالكعبة الشريفة وبكسوتها واوقفت لهذا الغرض واردات قريتين في نواحي وخصصت لصناعتها دارا عرفت باسم دار الكسوة ومن هؤلاء المماليك السلطان الظاهر بيبرس (٦٦١هـ) والسلطان اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ثم السلطان حسن (٧٦١هـ)(٥٢) وقد رسم لنا الرحالة ابن بطوطة صورة واضحة لكسوة الكعبة في هذه الفترة(٥٣) سنتعرف عليها في الصفحات القادمة .

وعندما استولى العثمانيون على مصر وامتد سلطانهم حتى شمل معظم الجزيرة العربية وقع على عاتقهم ارسال هذه الكسوة الى الكعبة واوقفت لهذا الغرض اوقافا كثيرة(٥٤) ، وأصبحت عادة ارسال الكسوة بعد ذلك فرضا على كل والٍ .

نسيج الكسوة وألوانها

ذكرنا في بداية البحث ان الكعبة كانت قد كسيت في الجاهلية بالخصف والمعافر والملاء والوصائل والعصب والمسوح والانطاع وهي اما جلود حيوانات كالانطاع أو من الشعر الغليظ كالمسوح ، رقيقة كانت كالملاء أو خشنة الملمس كالخصف بالاضافة الى عدة انواع من المنسوجات كانت تصنع خصيصا لعمل كسوة الكعبة قبل الاسلام واستمر استعمالها بعد كالقباطي(٥٥) .

والقباطي نسيج مصري معروف كانت تعمل

(٤٣) القلقشندي ـ صبح الاعشى ـ جـ ٤ ـ ص ٢٨٠ والازرقي ـ اخبار مكة ـ جـ ١ ـ ص ٢٦٤ .
(٤٤) القلقشندي ـ المصدر السابق ـ ص ٢٨١ .
(٤٥) ابو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ـ جـ ٤ ـ ٢١٧ .
(٤٦) ابو المحاسن ـ المصدر السابق ـ ص ٢٧٦ .
(٤٧) ناصر خسرو ـ سفرامه ـ ص ١١٠ تعريب يحيى الخشاب ـ بيروت ١٩٧٠ .
(٤٨) الحافظ ـ شفاء الغرام ـ جـ ١ ـ ص ١٢٢ .
(٤٩) الحافظ ـ المصدر السابق ـ ص ١٢٢ .
(٥٠) بدأت رحلة ابن جبير عام ٥٧٨هـ انظر ص من هذا البحث في وصف الكسوة .
(٥١) الحافظ ـ شفاء الغرام ـ ص ١٢٢ .
(٥٢) الحافظ ـ المصدر السابق ـ ص ١٢٤ والقلقشندي ـ صبح الاعشى ـ ص ٢٨١ .
(٥٣) بدأت رحلة ابن بطوطة الشهيرة في سنة ٧٢٥هـ . انظر ص في هذا البحث في وصف الكسوة
(٥٤) الخليلي ـ موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم مكة ـ ص ٢٩٩ ـ بغداد ١٩٦٧ .
(٥٥) القباطي : هو الاسم الذي اطلقه العرب على النسيج المصري الذي عرفه الأوربيون فيما بعد باسم التبستري *Tapestry* (سعاد ماهر ـ نسيج المنحف القبطي ـ ص ١٥) وتعني كلمة قبط (مصر) باللغة الأغريقية (سعاد ماهر ـ مشهد الامام علي ـ ص ٢١٠) وقد انتشرت صناعة هذا النوع من النسيج في معظم بلاد الشرق الأوسط وخاصة في ايران وتركيا منذ القرن السادس عشر ثم عرفه الاوربيون وانتجوه بأسماء اخرى مستعارة هي (جوبلان) و (أبيسون) (سعاد ماهر ـ المصدر السابق ـ ص ٢١١) .

منه كسوة الكعبة قبل الاسلام وكسيت به في عهد الرسول (ص)[٥٦] وكسيت به ايضا من قبل الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان[٥٧] ، ثم كساها عبدالله بن عمر بن الخطاب بما كان يلبسه من القباطي والحبرة[٥٨] ، واستمر معظم الخلفاء المسلمين على استعمال القباطي في كسوة الكعبة ففي السنة الحادية عشرة من حكمه كساها الخليفة الحاكم (٣٩٧هـ) بالقباطي الذي كان معروفا في مصر منذ العصر الفرعوني واستمر في تطوره في العصر القبطي ثم العصر الاسلامي[٥٩] ، ويمتاز بنصاعة بياضه ورقة ملمسه وبعناصره الزخرفية البديعة حيث يدخلها النساج اثناء عملية النسج على قطعة النسيج الاصلية وبلونين او اكثر . وبعبارة اخرى يمكننا ان نقول « ان المنسوجات التي تزين بهذه الطريقة كانت تنسج بتقاطع خيوط اللحمة (الافقية) مع خيوط السدى (الطولية) وعند النقطة المطلوب زخرفتها تترك خيوط اللحمة الاصلية ويستخدم بدلا منها خيوطا اخرى تختلف عنها في اللون او في نوع المادة وبهذه الخيوط الاخيرة يستطيع النساج نسج انواعا من الزخرفة واذا ما انتهى منها عاد ثانية الى تنظيم خيوط السدى الى ما كانت عليه من قبل ثم استأنف عملية النسج مستعملا خيوط اللحمة الاصلية[٦٠] .

ومن نسيج الكتان[٦١] عملت كسوة الكعبة ايضا وقد اشتهرت مدينة تونه بنسج الكساوي الكتانية[٦٢] ويذكر ان الكعبة الشريفة كانت في عهد الخليفة عثمان (رض) تكس بكسوتين في السنة من الكتان وفي عهد الخليفة الاموي معاوية كسيت بكسوة من الكتان في الصيف ثم تستبدل بالنسيج اليماني المقلم في الشتاء[٦٣] .

ومن نسيج الحرير كسيت الكعبة ايضا قبل الاسلام وذلك على يد ام العباس ، وزاد الطلب على نسيج الحرير بعد الاسلام وعملت منه الكسوة ايام ازدهار الدولة العباسية فقد امر الخليفة المأمون باستبدال الكسوة ثلاث مرات في السنة الواحدة من نسيج الحرير[٦٤] .

ونظرا لرقة هذا النوع من النسيج فغالبا ما كانت الكسوة منه تبطن بنسيج اكثر سمكا من الكتان مثلا كي تمنع تهرؤها وخاصة اثناء موسم الحج حيث يحرص كل حاج على لمسها والتعلق بأذيالها للتبرك .

كما كانت تعمل الكسوة من نسيج القطن ففي سنة ٦٤٣هـ كسيت الكعبة ثيابا من القطن مصبوغة بالسواد كساها بها منصور بن منعة البغدادي شيخ الحرم بمكة بعد ان تمزقت كسوتها من ريح شديدة هبت على مكة في تلك السنة[٦٥] .

الالوان

اما الوان هذه الكسوات فكانت تأتي عفوية وبطريق الصدف فالاعرابي الذي يقوم بوضع ما يملك من كسوة لا يحدد اللون الذي عملت منه هذه الكسوة فقد كانت الكعبة تكس بكسوات من الوصائل وهي ثياب حمر مخططة الى جانب ذلك تكس بكسوات صفر وخضر حيث تخبرنا ام زيد ابن ثابت الانصاري في الجاهلية انها رأت على « الكعبة » مطارف خز خضر وصفر[٦٦] .

وعندما عملت الكسوة من نسيج القباطي الابيض ومن نسيج الديباج فحددت الالوان فقد شاع استعمال الديباج الاحمر ثم استبدل بالديباج الابيض وذلك في عهد الخليفة العباسي المأمون ، والظاهر ان الديباج الابيض يكون اكثر سمكا ومتانة من الديباج الاحمر .

وفي ايام الخليفة الناصر العباسي وللمرة الاولى بعد الاسلام كسيت الكعبة بكسوة ذات لون

---

(٥٦) الزركشي ـ اعلام الساجد باحكام المساجد ـ ص ٥٢ ـ القاهرة ١٣٨٤هـ .

(٥٧) الازرقي ـ اخبار مكة ـ ١١٩ والبلاذري ـ فتوح البلدان ـ ص ٤٧ وشفاء الغرام ص ١١٩ .

(٥٨) الحافظ ـ شفاء الغرام ـ ج ١ ص ١١٩ والازرقي ـ اخبار مكة ـ ج ١ ـ ص ٢٥٣ و (الحبرة) هي نوع من برود اليمن المنمر وجمعها (حبر) (ابن منظور ـ لسان العرب ـ ص ١٥٩ ـ بيروت ١٩٥٥) .

(٥٩) سعاد ماهر ـ مشهد الامام علي ـ ص ٢١٠ .

(٦٠) مرزوق ـ الفنون الزخرفية الاسلامية في مصر قبل الفاطميين ـ ص ٦١ ـ مصر ١٩٧٤ و (سعاد ماهر ـ مشهد الامام علي ـ ص ٢١٢) .

(٦١) ديماند ـ الفنون الاسلامية ـ ص ٢٥٠ ـ مصر ١٥٨ .

(٦٢) الخليلي ـ موسوعة العتبات المقدسة ـ ج ١ ـ قسم مكة ـ ص ٢٩٩ .

(٦٣) الخليلي ـ المصدر السابق ـ ص ٣٠٠ (لقد مر بنا ان نسيج الديباج حيث تكون سداته ولحمته من الحرير) عملت منه الكسوة في عهد الخليفة العباسي المامون .

(٦٤) ابن بطوطة ـ تحفة النظار في غرائب الامصار ـ ج ١ ـ ص ١٠٦ .

(٦٥) الحافظ ـ شفاء الغرام ـ ج ١ ـ ص ١٢٢ .

(٦٦) الحافظ ـ المصدر السابق ـ ج ١ ـ ص ١١٩ .

أخضر(٦٧) وكانت قبل الاسلام تكسى بكسوات من نفس اللون ومن حسن الحظ ان يساهم الرحالة ابن جبير في رحلته برسم صورة مشرقة لكسوة الكعبة الخضراء اللون في اثناء تأديته مراسيم الحج(٦٨) .

وللخليفة الناصر كسوة اخرى من الديباج أو الحرير ذات لون اسود(٦٩) الذي أصبح مفضلا في كسوة الكعبة منذ العصر العباسي وليومنا هذا .

وعن الالوان الاخرى لكسوة الكعبة يخبرنا القلقشندي « أن الكسوة كانت من الحرير الاصفر ومن الديباج الازرق »(٧٠) .

مراسيم حمل الكسوة الشريفة :

لقد مر بنا ان الكسوة الشريفة كانت تحمل من مراكز قوة الخليفة أو السلطان في بغداد أو القاهرة مركز الخلافة العباسية أو الخلافة الفاطمية وسواء كانت من هنا أو هناك فانها كانت موضع اهتمام كل خليفة ووالي على مر السنين ولهذا خصصت مصانع كبيرة تقوم بنسج الكسوة على مدار السنة تُعرف باسم (دار الكسوة) ، ذكر (ڤان برشم) ان الكسوة كانت تنسج في قصر (مبرقش) في مصر يقع بالقرب من قصر السلطان بالقلعة ويعرف باسم قصر الكسوة ، واليوم يطلق هذا الاسم على دار تقع في حي الخرنفش بالقاهرة(٧١) وقد كان لدار الكسوة رئيس ذو صفة دينية يُعرف باسم « ناظر الكسوة »(٧٢) ، وغالبا ما يكون الناظر قد مارس مهنة القضاة ، اما المهام المنوط به : فانه يقوم بجمع الاموال الموقوفة لغرض الكسوة مرة كل سنة ثم يقوم بشراء ما يحتاجه العمل من المواد الاولية للنسيج من خيوط الكتان والحرير والصوف ثم خيوط الفضة والذهب لتطريزها(٧٣) .

بعد ان يتم نسج الكسوة كانت تحمل الى الكعبة وسط مراسيم خاصة بحامل من الخشب يطلق عليه اسم المحمل(٧٤) (انظر الشكل ٢) نشاهد في هذه المنمنمة قافلة حجاج تحمل في الغالب كسوة الكعبة وقد عبّر الواسطي مصوّر هذه المنمنمة عن هذا المشهد برسم الحجاج وهم فوق الجمال وقد رفعوا الرايات ونفخوا في الابواق وضربوا على الطبول(٧٥) .

وللقلقشندي وصف مفصل لحمل كسوة الكعبة نفهم منه أن المحمل كان يجهز مرتين في السنة ، الاولى وتكون في النصف الثاني من شهر رجب وقبل خروج المحمل بثلاثة ايام يطلب من اصحاب الحوانيت تزيين حوانيتهم ويكون يوم خروج المحمل في الغالب يوم الاثنين أو الخميس لا غير ويحمل المحمل على جمل مزركش وعليه غطاء من حرير أصفر وبأعلاه قبة من فضة مطلية بالذهب .

وفي ليلة خروج الجمل يقضي ليلته داخل باب النصر بالقرب من جامع الحاكم وفي الصباح توضع عليه كسوة الكعبة ويسير الى تحت القلعة ويتقدم الموكب الوزير والقضاة والمحتسب واثنان من الشهود ثم ناظر الكسوة ويتقدم الموكب هذا مجموعة من مماليك السلطان وهم في كامل معدات الحرب باللعب بالرماح والسيوف واللعب بالنار ومن أجل ذلك تهيأ اعداد كبيرة من قناني النفط .

يسير الموكب متوجها نحو مدينة الفسطاط

---

(٦٧) السيوطي ـ فهرست تاريخ الخلفاء ص ٢٠٣ والحافظ ـ المصدر السابق ـ ص ١٢٢ .

(٦٨) ابن جبير ـ الرحلة ـ ص ٤٨ و ص ١٣٨ .

(٦٩) السيوطي ـ المصدر السابق ـ ص ٣٠٣ .

(٧٠) القلقشندي ـ صبح الاعشى ـ ج ٤ ـ ص ٢٨٢ ـ القاهرة ١٩١٤ .

(٧١) مرزوق ـ الفنون الزخرفية الاسلامية في مصر قبل الفاطميين ـ ص ١٩٢ .
عندما استولى الملك عبدالعزيز آل سعود على مكة ١٣٤٣هـ أصبح لكسوة الكعبة صفة سياسية بعد ان كانت من اعمال البر فامتنعت مصر عن ارسال الكسوة فامر الملك بانشاء دار خاصة للكسوة والصناعة في أجياد بمكة المكرمة وذلك في سنة ١٣٤٦هـ وجلب لهذه الدار أول الامر عمال من الهنود ثم حل مكانهم عمال من اهل البلاد حذقوا هذه الصناعة (انظر الشكل (١)) .

(٧٢) حسن الباشا ـ الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ـ ج ٣ ـ ص ١٢٢ ـ القاهرة ١٩٦٦ .

(٧٣) حسن الباشا ـ المصدر السابق ـ ص ١٢٢ .

(٧٤) المحمل : عبارة عن اطار مربع من الخشب هرمي القمة مغطى بستار من الديباج الأحمر أو الأخضر وغالباً ما يزدان بزخارف نباتية واشرطة كتابية مطرزة بخيوط من الذهب وينتهي من الأسفل بشراشيب وللمحمل أربعة قماقم من الفضة المطلية بالذهب في الزوايا الأربعة ويوضع داخل المحمل مصحفين صغيرين داخل صندوقين من الفضة المذهبة معلقتين في القمة اضافة الى الكسوة الشريفة ، يوضع المحمل على جمل ضخم يسمى (جمل المحامل) ويتمتع هذا الجمل باعفائه من العمل بقية ايام السنة . (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ـ أحمد أمين ـ ص ٣٦٠) .

(٧٥) عيسى سلمان ـ الواسطي ـ ص ٤١ ـ ٤٢ ـ مطبوعات الاعلام ١٩٧٢ .

ثم راجعا الى تحت القلعة ثم يحمل مرة ثانية الى جامع الحاكم ويترك الى شهر شوال وخلال هذه الفترة تبقى الطبول مستمرة بالضرب وبعد النصف من شوال تحمل الكسوة على المحمل متوجها الى الديار المقدسة(٧٦) .

وعند وصول الموكب الشريف الى الاراضي المقدسة يخرج امير مكة وقاضيها لاستقباله ويصادف ذلك في يوم النحر كما يصاحب الاستقبال الاميري رفع الرايات وضرب الطبول ، ثم تنقل الكسوة الى المسجد الحرام وتوضع الكسوة فوق سطح الكعبة وفي اليوم الثالث بعد يوم النحر يبدأ الشيبيون باسبال الكسوة على الكعبة(٧٧) . (انظر شكل / ٣) .

وصف الكسوة :

واستنادا الى ما تقدم نستطيع ان نرسم صورة مقربة الى ما كانت عليه الكسوة منذ فجر الاسلام وعلى مر العصور .

ففي بداية العصر الاسلامي تؤكد المراجع التاريخية ان الكسوة كانت خالية من الزخرفة(٧٨) وانها كانت سوداء اللون ثم اصبحت تزين بجامات منقوشة بالحرير الابيض او مطرزة باشرطة كتابية بيضاء(٧٩) زينت بأشرطة مطرزة بخيوط صفراء(٨٠) .

وحيث ان الكسوة تتشابه في المادة والزخرفة على مر العصور الا انها تختلف في جودة الصنع ولهذا فاننا سوف نستعرض بعضا من وصف المؤرخين والرحالة لنرسم لها صورة واضحة جلية .

فالازرقي المتوفى سنة ٢٢٣هـ يصف الكسوة بقوله « ... والبيت كله مستوف الا الركن الاسود فان الاستار تفرج عنه مثل القامة ونصف ، واذ دنا وقت الموسم كسي القباطي ... فاذا احل الناس ذلك يوم النحر حل البيت فكسى الديباج الاحمر الخراساني وفيه دارات مكتوب فيها حمد الله وتسبيحه وتكبيره وتعظيمه ... »(٨١) .

اما ابن جبير يذكر في رحلته وصفا مفصلا لما شاهده على الكعبة من الكسوة نفهم منه ان جوانب الكعبة الاربعة مكسوة بستائر من الحرير الاخضر وهي من عدة قطع يبلغ مجموعها أربع وثلاثون قطعة او شقة مقسم على الاضلاع الاربعة للكعبة ففي الضلع المحصور بين الركن اليماني والركن الشامي (تسع شقق) تقابلها بالمثل من الضلع الآخر والمحصور بين الركن الاسود والركن العراقي، اما بين الركن العراقي والشامي فيكون مجموع القطع ثماني ومثلها ما بين اليماني والركن الاسود، وقد وصل وقد وصل ما بين هذه الشقق كلها فأصبحت وكأنها ستارة واحدة ، والزخرفة في هذه الكسوة عبارة عن كتابة تنحصر في شريط عرضه متر ونصف وطرز بخيوط من الحرير الاخضر ايضا يقرأ فيه الاية الكريمة : « ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة .... »(٨٢) كما يضم الشريط الكتابي اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله وعبارات الدعاء له وتحف بالشريط طرتان (جامتان) حمراوان ملئتا بخط رقيق نقرأ فيه آيات من القرآن الكريم وذكر الخليفة ايضا ، فظهرت الكسوة بأجمل منظر وكأنها عروس جليت في السندس الاخضر(٨٣) .

ويخبرنا ابن بطوطة ان الكسوة في أيامه كانت من الحرير الحالك السواد وهي مبطنة بنسيج الكتان السميك ويزدان أعلاها بشريط كتاني مطرز بخيوط من الفضة يقرأ فيه آيات من القرآن الكريم(٨٤) .

وقد ذكر صاحب مرآة الحرمين استشهاد شرعي حرر في سنة ١٣٢١هـ في وصف كسوة تلك السنة بقوله « جميع كسوة بيت الله الحرام المشتملة على ثمانية أحزمة واربعة رنوكة (دوائر) مزركشة بالمخيش الابيض والاصفر المطلي بالبندقي الاحمر على الحرير الاسود والاطلس الحرير والاخضر المبطن بالبفت الابيض والنوار القطن»(٨٥).

وكان تصنع مع كسوة الكعبة ستارة تعرف بأسم (البرقع)(٨٦) ويروى ان اول من كسا باب الكعبة هو تبع الحميري قبل الاسلام وهو القائل :

---

(٧٦) القلقشندي : صبح الأعشى ـ ج ٤ ـ ص ٥٧ ـ ٥٨ .
(٧٧) ابن جبير ـ الرحلة ـ ص ١٣٨ .
(٧٨) الحافظ ـ شفاء الغرام ـ ص ١٢٢ .
(٧٩) أي خيوط من الفضة .
(٨٠) أي خيوط من الذهب .
(٨١) الأزرقي ـ اخبار مكة ـ ج ١ ـ ص ٢٥٣ .
(٨٢) القرآن الكريم سورة آل عمران الاية (٩٦) .
(٨٣) رحلة ابن جبير ـ ص ٤٨ و ص ٥٦ و ص ١٣٨ .
(٨٤) ابن بطوطة ـ الرحلة ـ ص ٨٢ و ص ١٠٦ .
(٨٥) ابراهيم رفعت باشا ـ مرآة الحرمين والرحلات الحجازية ـ ص ٦ ـ ص ٧ .
(٨٦) المرجع السابق ـ ص ٧ .

كســونا البيت الذي حــرم اللــه
مــلاء معضــداً وبــــروداً
فأقمنــا بــه مــن الشــر عشــراً
وجعلنــا لبابــه إقليــداً[٨٧]

وغالبا ما تكون ستارة باب الكعبة من نفس نسيج الكسوة أما زخارفها فتكون عبارة عن اشرطــة كتابية تضم آيات من القرآن الكريم مطرزة بخيوط من الحرير الابيض والاصفر وخيوط من الفضــة والــذهب .

وفي الاستشهاد الشرعي المار الذكر وصف لستارة باب الكعبة وقد جاء فيه : « وستارة بيت الله الحرام المعبر عنها بالبرقع المزركشه بالمخيش الابيض والاصفر المطليبالبندقي الاحمر على الحرير الاسود والاطلس الحرير الاخضر والاحمر المبطنــة بالبغث الابيض بها خمسة شراشيب حرير أسود وقصب وستة اذررة (كذا) فضة مطلية بالبندقي الاحمر واثنتي عشرة شمسية مزركشة على الحرير الاحمــر »[٨٨] .

ولا تخلو كتب الفن الاسلامي وعلى وجــه التحديد كتبالتصوير الاسلامي منصور توضيحية للكعبة وكسوتها ومن هذه الرسوم تصويرة تعود الى القرن التاسع الهجري (١٥م) تمثل مجنــون ليلى وقد تعلق بمطرقة باب الكعبة متوسلا الى الله ان يرعى حب ليلى وينميه[٨٩] (انظر الشكل(٤)) .

نلاحظ في هذه التصويرة الكعبة وقد ازدانت بكســوتها الســوداء تزخرفها صفوف من النقط الذهبية بشكل متعرج كل صف يبدأ وينتهي بشكل نجمــة ذهبيــة .

اما القسم الآخر من الزخرفة فيتمثل بكتابة بالخط النسخي محصورة داخل اشرطــة عددها ثلاثة باللون الذهبي تمتد في أعلى الكسوة نقرأ فيها [سبحان ذي الملك والملكوت سبحان المالــك الحي الذي لا يموت] ويستمر الشريط الكتابي هذا في الجهة الاخرى من الكعبة نقرأ منه فقط [سبحان ذا العلى .....] .

اما الشريط الثاني في وسط الكسوة نقرأ منه [عجلوا بالصلاة قبل الموت] . الشــريط الثالث ويقع فوق باب الكعبة مباشرة نقرأ فيه : [الصلاة عماد الديــن] .

اما باب الكعبة فقــد صورت باللون الذهبي خالية من الكسوة توجد في قسمها العلوي مطرقة دائريــــة .

× × ×

وتصــويرة اخــرى من مدرســة شــيراز (١٤١٠ ــ ١٤١١) محفوظة في متحف لندن تمثل الكعبة والحرم والشريف وقد اكتظ بالحجاج وهم في ملابس الاحرام اما اعلى التصوير فتظهر رسوم الملائكة وقد حفت بالحرم والكســوة ملونة باللون الاخضــر يزدان اعلاها بخطوط متقاطعــة باللون الاسود يحدها من الاعلى شريط ضيق ذهبي ، اما الباب فقد كســي بســتارة باللون الذهبي يزدان قسمها العلوي بكتابة غير واضحة[٩٠] وكذلك (انظر الشكل ٥ و ٦) .

نجد في هذين اللوحين تفاصيل لكسوة الكعبة في عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر والعناصر الزخرفية لهذه الكســوة هي استمرار للعناصــر الزخرفيــة الاســــلامية تتمثــل في الاشــرطة الكتابية والتي تتضمن ايات من القرآن الكريــم بالخط النسخي وكلمة الجلالة محصورة داخــل دوائر ثم نقرأ اسم الرئيس الذي عملت الكسوة في عهده حيث كان يكتب في العصر العباسي اسم الخليفة ثم نقرأ تاريخ النسج وقد كان هذا متبعا في العصر العباسي ايضا .

اما العناصر الزخرفية الاخرىعلى هذه الكسوة هي عناصر نباتية تتمثل بالاغصان الملتوية والمنتهية باوراق البالميت وانصاف الباليت فنجدها احيانا محصورة داخل اشرطة واحيانا اخرى تاطر الكتابة المحصورة داخل الدوائر . اما حواشي الكســوة فتزدان بشريط عبارة عن عرق نباتي يلتوي وينتهي بوردة ذات ثلاثة أوراق مرة تخرج من الاعلى ومرة أخرى من الاسفل[٩١] .

---

(٨٧) الحافظ ــ شفاء الغرام ــ جـ ١ ــ ص ١٢٣ .

(٨٨) ابراهيم باشا مرآة الحرمين ــ جـ ١ ــ ص ٧ ــ ٨ (وتلحق بكسوة الكعبة كسوة مقام سيدنا ابراهيم الخليل وكيس مفتاح بيت الله وستارة باب سطح بيت الله الحرام المعروفة بباب التوبة داخل بيت الله الحرام وستارة باب منبر الحرم الشريف ثم حبال قطن لتعليق الكسوة (ابراهيم باشا ــ المصدر السابق ــ ص ٨) .

89) Bernard Lewis: The World of Islam; P : 45; London. 1976.

90) Gray : Persian Painting; P 72; Pl : 73; London 1961.

(٩١) من المعلوم ان هذه الكسوة تعود لعصرنا الحاضر الا انها لا يستبعد ان تكون استمرار للصناعة ذاتها من العصور الاسلامية الاولى .